كان العمل بالنسبة لي اكثر من طعامي وشرابي ، كان مخبأي بعد ذلك الحادث التعيس وكنت لا أملك في هذا العالم الا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه أحد ، وحقدا أحمر يطل من حدقتي الكابتن بلاك اثر النزال الاخير بيننا أمام شجرات الصبار الوحشي في الطيرة .

كان حسنين يرتجف ، ولكن بكبرياء .. واحسست وانا انظر اليه واقفا هناك ينقب في كلماتي القصيرة انني أمام رجل خاص . أجل . هذه هي الكلمة . رجل خاص لست تستطيع أن تعرف عنه اكثر من احساسك به ، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب علي أيضا . لقد عبرت الصفقة الصغيرة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة ذاتها التي عرف فيها انني أخبىء له سرا اعرف أنه يخبىء هو الآخر سرا آخر في المقابل، وحين جاءت هذه الفكرة الى رأسي نظرت اليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة، كالمصافحة، ودون أن يقول شيئا استدار ومضى .

ذهبت الى الاسطبل فوضعت « الهيجا » في مربطها وعلقت لهـا واستلقيت على كوم التبن جاعلا من صرتي وسادتي واخذت انظر اليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى ، فهي الاخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد ، ان الخيل تشبه الشجر وبوسعي التيقن من هذا حين أرى هيجا بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخبط ذراعيها في الهواء رافعة عنقها الطويل الى الاعلى مصدرة صهيلا راجفا مثل صوت الريح حين تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة ، في اي أرض كنت يا هيجا ؟ ان اقدار الخيل مثل اقدار الرجال ، اني ذلك ايما شك ؟ ومثل أقدار الرجال تتلاقى أقدار الخيل في البراري وتحت جبال الليل ، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا ، ولما كان بوسعي أن اكمل فراري من الطيرة ، لقد هربت بعد اللقاء الاخير مع الكابتن بلاك راجلا وفي يدي بندقية جديدة ، وبعد ليلتين سلبت فرسا أصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت اعرف ان علي التخلص من هذه الفرس في أول فرصة ، فأنت لا تستطيع الا تكون معروفا حين تكون مع فرس أصيلة مفروقة ، ولكن أقدار الخيل تتلاقى مثل اقدار الرجال ، وفي الليل ، بعيدا وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفر عناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو، فقلت : أستبدل فرسي . رفعت كوفيتي حتى جفني وتيبست مع الحصان وراء المنحنى ، ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد ، ولكنه رآني في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ بندقيته يمضغ الطلقة ، وقال صوت بدوي : أهذه فرس أصيلة ؟ ولم أجب فتقدم على ظهر فرسه خطوة ، وتبينت جزءا من وجهه النبيل المتكبر وقال لنفسه : انهـا فرس اصيلة . ودار حولي واثقا من فرسه ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال : وأنت ايضا سرقت هذه الفرس . وهززت بندقيتي برفـق وحركت فرسي حوافرها وشمت بصوت مسموع ، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الاربعة ، انزل بندقيته وقال : اعطني فرسك وخذ فرسي ، ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها ، ونظر اليها وهو يعطيني اللجام وقال ، كأنه يحادثها : انهم يسموننني ابو الهيجا ، سرقت هذه الفرس في البادية وجئت استبدلها هنا ، وسأعود بفرس لا يعرفونها .. ونظر الي : وهذه فرس لا يعرفونها هنا .. وبهذه البساطة تداخلت أقدارنا نحن الاربعة في بعضها ، امتطى فرسي وامتطيت فرسه واسميتها « هيجا » ومضينا دون اية كلمة ، عاد هو الى باديته وراء الحدود وضربت انا مع هيجا شمالا .. من اي أرض جئت يا أصيلة ، يا امرأة ، يا شجرة ؟ كانت تغطس رأسها في التبن وتمضغ بدعة، وجاء الرئيس فنظر اليها ودار حولها فبادلته النظر ، ومشط عرفها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر الي وجلس الى جانبي وهو يفتح علبة من المعدن الصدىء ثم دفعها نحوي وهو يقول : لف سيجارة ، انه تبغ ممتاز ، وأخذنا نلف سيجارتين صامتين ، وبلعت الدخان حتى قرارة رئتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر الي فاحصا دون ان يقول شيئا .